جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 29 العدد 01 السنة 2024
مجلة المعيار
EL MIEYAR

إعجاز القرآن من خلال الأثر الإنسانيّ

جمع ودراسة لأفكار من كتاب 'إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة' للرافعيّ

The Miraculous of The noble Qur'an in through human Impact
Collection and Study of ideas from the book "The Miraculous of The Qur'an and The Prophet's Eloquence" by Arafi'i

شلال ربيع[1]
Rabie.chemlal@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/05 تاريخ القبول: 2024/11/25 تاريخ النشر: 2024/12/20
Received:05/10/2024 Accepted: 25/11/2024 published: 20/12/2024

ملخص المقال: تدور حيثيّات هذه الورقة البحثيّة على فكرة إعجاز القرآن من جانب أثره الإنسانيّ، وهي فكرة طرحها الأستاذ مصطفى صادق الرّافعيّ في كتابه 'إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة' وبيّن حدودها المعرفيّة وأفكارها الجزئيّة، لكنّ ذلك حصل في أماكن متفرّقة من كتابه، فكان عملي موجّها إلى جمع كلامه وترتيبه وتحليله، وجعلتُ هدفي الأساس التّعريف بفكرته، وبيان قيمتها المعرفيّة، منطلقا من إشكاليّة هل من الممكن مقارنة التّأثير القرآنيّ على الإنسان بغيره من الخطابات، ثمّ بناء خلاصة متعلقة بالتحدّي والإعجاز؟ وقد خلصت إلى نتائج مهمّة، تحتوي مجموعة نقاط جمعتها كلّها من كلام الأستاذ مصطفى صادق الرّافعي.

كلمات مفتاحية: إعجاز القرآن، أثر القرآن، الأثر الإنسانيّ، مصطفى صادق الرافعي.

Abstract:

The main idea of this Research paper revolves around The Miraculous of The noble Qur'an from the perspective of its human impact.It is an idea presented by Professor Mustafa Sadiq Arafi'i in His Book "The Miraculous of The noble Qur'an and The Prophet's Eloquence" and he explained its concept and partial ideas. So my effort was directed at collecting, arranging and analyzing his Discourse, And I made my first goal to introduce his idea and explain its value, starting from the problem of is it possible to compare the effect of the Qur'an's Discourse with other Discourse.

Keywords: The Miraculous of The noble Qur'an; Impact of The noble Qur'an; Humanitarian impact; Professor Mustafa Sadiq Arafi'i.

(1) جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان (الجزائر)

مقدمة:

خَصّ الأستاذ مصطفى صادق الرافعيّ (الزّركلي،2002،ج7ص234)كتابه 'إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة' للتّدليل على مسائل الإعجاز القرآنيّ المتعلّقة بتخصّصه الأدبيّ، لكنّه في مباحث المقدمة أشار إلى جوانب كثيرة من الإعجاز منها ما سماه "الأثر الإنسانيّ" وقصد أثر القرآن الكريم على الإنسان الذي فاق القدرة المعهودة على التّأثير في مقياس الخطاب الإنسانيّ، وسمّاه مرّة 'المعجزة الاجتماعيّة'(الرّافعيّ،2005،ص69).

إنّ هذا الجانب المهمّ وإن لم يقصده الرّافعيّ بالعناية والبحث، إلاّ أنّه استدعاه كثيرا في كتابه، وتناوله ببعض التّعليقات المستعجلة مرّة بعد مرّة في مواضع متفرّقة، وقد تأمّلت بعضها فوجدت فيها نفَسه القويّ في استنباط الأحكام وتنويع الأفكار، لكنّ تفرّقها في الكتاب غيّب جماليّتها، فكانت فكرة جمع كلامه وتصنيفه وتحليله، بحيث يعتبر مادة حريّة بالإظهار والتّحليل، كما قد يعتبر خريطة أو متنا لكلّ باحث أراد التّوسّع.

الإشكاليّة:

القرآن خطاب موجّه لبني البشر، وفيه قصص كثيرة عن التّجارب الإنسانية، وكلا العنصرين متعلقان بالإنسان، فنتصور ابتداء أنّ الأثر ـ بغضّ النّظر عن نوعه ـ على الإنسان في ذاته أو تصرفاته أو معتقداته أو سعيه سيكون ظاهرا ملموسا، ولن يكون خفيّا أو غامضا.

وهذا ما أعتقد أنّه اجتذب الرّافعي إلى الخروج عن مقصوده في تحرّي البلاغة الأسلوبيّة لإظهار الإعجاز، إنّ تكرار الكلام حول الأثر القرآنيّ المتجدّد عبر العصور والأجيال بما يشبه التّأكيد والتّأصيل يجعلنا نتساءل:

- ✓ عن تنوع الرّوايا التي نظر منها الرّافعيّ وإليها، باعتبار تنوّعها وكثرتها، وعن علاقتها بعصر الوحي وصلاحيّة استمرارها لكلّ زمان ومكان.
- ✓ عن مقاومتها للتّطوّر الإنسانيّ وتجاوبها مع النّظريات المستحدثة في علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النّفس..
- ✓ وعن مسالكه في كتابه في توضيح عناصر الإعجاز من جانب الأثر الإنسانيّ.

الأهداف والأهمّيّة:

إنّ دراسة الأثر وحده كاف للتّأثير على مسار التّطور الإنسانيّ، فإذا ركزنا البحث على جانب الإعجاز القرآنيّ في عمليّة التّأثير فإنّنا حينها نهدف مباشرة إلى:

- ✓ معرفة خصائص الأسلوب القرآنيّ ومنهجه في التّأثير.
- ✓ معرفة الأهمّ فالأهمّ من الجوانب الفاعلة في عمليّة التّأثير.
- ✓ التّعرف على المعنى الصحيح للإعجاز وللأثر الإنسانيّ فيما عرضه الرّافعي نقلا عن غيره، وفيما قرّره من بنات أفكاره.

✓ تحديد المسالك التي اعتمدها في عملية استخراج مظاهر الإعجاز.

أمّا الأهمّيّة فظاهرة في كون الموضوع يخدم القرآن منهجَ الأمّة ودستورها، وهو في سياق التّعريف بأسباب خلوده ودلائل صدقه، خاصّة في عصر تعدّدت فيه جهات الطّاعنين، وتنوّعت أساليب المشكّكين.

الدّراسات السّابقة:

لم أقف في حدود بحثي على مادّة تشبه المادّة التي تناولها الرّافعيّ وقصدت إلى جمعها وإبرازها في هذه الورقة، وإن كنت وجدت بعض الدّراسات التي يبدو أنّها تتلاقى معها في جانب أثر ما، كالأثر النّفسيّ، ومن تلك الدّراسات:

- مقال بعنوان 'إعجاز القرآن وأثره في تحقيق الأمن النّفسي' للدكتور ربيع يوسف شحاتة الجهني، أستاذ التّفسير بكلّيّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة بالإسكندريّة، نشره في مجلة كلّيّة الدّراسات الإسلاميّة العدد: الخامس والثّلاثين 2018م، ذكر فيه قصصا وردت في كتب التّاريخ والسّير فيها أحداث تأثّر شخوصٍ معيّنين بالقرآن الكريم، ثمّ بنى على تحليل تلك القصص دراسته.

وغيرها من الدّراسات المقاربة، غير أنّها كلّها تفترق عن اتّجاه مادّة هذه الورقة في جوانب منها: أنّ الرّافعيّ مال إلى التّقعيد الكلّيّ، والتّنظير السّنني الظّاهر، ولم يركّز على أحداث أعيان، ونظر إلى الاستمراريّة التّأثيريّة التي لا تنتهي بانتهاء جيل، ولا تنقضي بذهاب عصر، واهتدى إلى جملة أفكار أظنّها جديدة كنظريّة 'القيافة المعنويّة' و'سرعة خروج العربي من تاريخه' وغيرها مما هو مدوّن هنا.

كما أنّه رحمه الله لم يفصل النّفسيّ عن الاجتماعيّ، ولا جانب التّنمية العقليّة عن التّنمية الوجدانيّة، ولا فصل بين التّأثّر الشّخصيّ عن التّأثّر الجماعيّ أو السّياسيّ، وإنّما ساغ تأمّلاته مجملة في أفكار عالية الأسلوب ثريّة المعنى.

وقد استعملت المنهج التّحليلي المناسب لجمع المادّة وتفسيرها والتّأليف بينها ثمّ إعادة بنائها.

كما افترضت ابتداء أنّ باع الرافعيّ العلميّ واطّلاعه على الآداب العربيّة (الرّافعيّ، 2013،ج1ص9) والعالميّة (الرّافعيّ،2000،ج3ص221)، كلّ ذلك يؤهله للإتيان بمادة تثير الإعجاب العقليّ والوجدانيّ، وتصنّف ضمن الإضافات العلميّة المهمّة والجادّة والمبتكرة، إلى حدّ أنّني أفترض أنّه سيأتي بنظريّة واضحة ومتكاملة حول هذا الموضوع.

وقد قسّمتُ الورقة إلى:

مقدّمة: تناولت فيها ما تعارف عليه الباحثون، من مدخل توضيحي حول فكرة البحث، مع الإشكالية والأهداف ومنهج البحث.

المطلب الأوّل: مفهوم الإعجاز وأنواعه: وهذا كانت وظيفته التّمهيد للموضوع الأساس بما يستكمل صورته، ويبيّن ماهيته، فلا يبقى لدى القارئ ما يقف بينه وبين استيعاب ما جاد به الرّافعيّ من أفكار في كتابه.

المطلب الثّاني: مجالات التّأثير الإنسانيّ الدّالة على وجه من وجوه الإعجاز: وله سيقت هذه الورقة، إذ يّنتُ فيه الأفكار التّفصيليّة التي عرضها الرّافعيّ فيما يخصّ الفلك الذي تدور عليه فكرة الإعجاز من خلال حساب درجات التّأثير.

المطلب الأوّل: مفهوم الإعجاز و أنواعه

2-1 الفرع الأوّل: مفهوم الإعجاز عند الرّافعيّ:

قدّم الأستاذ الرّافعيّ لكتابه بمهّدات ضروريّة في وصف الظّروف اللّغوية والسّياسيّة والاجتماعيّة التي نزل فيها القرآن، وبمقدّمات متخصّصة في بيان تاريخ تدوين القرآن وما قيل في أحرفه وقراءاته، ثمّ لما رأى أنّه استوفى الصّورة المرجوّة في عقل القارئ؛ دخل في المشروع العلميّ الذي قصد له، فبدأ بتعريف الإعجاز، وكانت عبارته واضحة دقيقة: (الرّافعيّ،2002،صفحة98) "**إنّما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانيّة في محاولة المعجزة ومزاولته على شدّة الإنسان واتّصال عنايته، ثمّ استمرار هذا الضّعف على تراخي الزّمن وتقدّمه**". (ابن تيمية،2000،ج1ص129) و(مصطفى مسلم،2005،صفحة18-23).

اعتبر شرطين في التّعجيز هما: ضعف القدرة الإنسانيّة أن تأتي بمثل ما تُحدّيت به، وهنا: ضعفُها عن الإتيان بالقرآن كاملا أو بجزء منه.

والثّاني: استمرار هذا الضّعف وعدمِ الاستطاعة مدى الدّهر، حتّى لو تظاهر النّاس أو استعانوا بأدوات؛ فإنّهم لن يأتوا بمثل القرآن مهما جدّوا في المحاولة.

وفي سياق ما يدخل في مفهوم الإعجاز والتّأثير الإنسانيّ: اعتبر أنّ أساس الفرق بين ما كان إلهيا وما كان إنسانيّا، وما يعتبر ممكنا وما يعتبر معجزا هو (الرّافعيّ،2005،صفحة6): هذا التّأثير المدهش (أو هذا التّأثير المقنّن أو هذا التّأثير الموجّه) الذي اختصّ بكون هدمِ القرآنِ لبعض النّظُم والأفكار الجاهليّة بناءً لأخرى بديلة، وبأنّه يقيم على أنقاض التّاريخ تاريخا أعمق وأبقى، فما شَرَعَ إلاّ لمصلحة وما حَرّمَ إلاّ لمصلحة، كلٌّ في خدمة الإنسان وتوفير ما يحفظ له دينه ودنياه.

2-2 الفرع الثّاني: أقوال العلماء في إعجاز القرآن:

عدّد مذاهب العلماء في مفهوم إعجاز القرآن(الرّافعيّ،2005،صفحة99)، وأخبر أنّه اختار أشهرها ولم يستقص، فذكر:

القول بأنّ القرآن مخلوق وأنّ فصاحته غير معجزة: ونسبه لرجل يهوديّ هو لبيد بن الأعصم، وعنه أخذه الجعد بن درهم (ابن تيمية،2004،ج5ص20)، ووصمه بأنّه كان فاحش الرّأي واللّسان.

القول بالصّرفة: قال بأنّه مذهب المعتزلة، وأنّهم انطلقوا من قول لبيد والجعد السّابق، متأثّرين أيضا بالفلسفة، ثمّ نبّه أنّ المعتزلة أنفسهم اختلفوا ولم يكن لهم رأي واحد، فاشتهر منهم أبو إسحاق إبراهيم النّظّام الذي أنشأ فكرة الصّرفة، زاعما أنّ العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن، ولكنّ الله صرفهم، فكان ذلك نوعا من الخرق للعادة الذي هو من أهمّ شروط المعجزة.

وردّه الرّافعيّ معتبرا أنّ التّعجيز بعدم القدرة ليس تعجيزا في ذات القرآن، وإنّما في ذات المسلوب للقدرة، واعتبر مذهب القائلين به مشابها لقول العرب: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر:24].

وممّن رأى الصّرفة المرتضى من الشّيعة، لكن بمفهوم آخر، وهو أنّ العرب قادرون على الإتيان بمثل فصاحة القرآن غير قادرين على تحميل الأسلوب كثافة المعاني الحاصلة من تعدّد العلوم الموجودة في القرآن.

وحكم عليه الرّافعيّ بأنّه ظاهر الخلط.

وممّن رأى بالصّرفة أيضا عثمان بن بحر الجاحظ، حيث أخذها عن شيخه النّظّام، غير أنّه كان يومئ إليها ولا يصرّح، واعتذر له أنّه قد يكون ناقلا ولا ندري، وذلك أنّ له رأيا يصرّح به، وهو نفسه رأيُ أهل العربيّة القائل بأنّ القرآن بلغ الدّرجة العليا من الفصاحة والبلاغة التي لا يستطيعها بشر.

القول بإعجاز القرآن من جانب الإخبار عن الأمور السابقة والآتية: وهو رأي يروى عن النّظّام أيضا.

القول بإعجاز النّظم: وهو أنّ نظم القرآن غريب مخالف لنظم العرب نرثهم وشعرهم، وهذا القول صحيح لو أنّهم اعتبروه نوعا من أنواعه ولم يقصروا الإعجاز عليه لا يتعدّاه.

وقريب منه القول بأنّ الإعجاز مقصور على سلامته من التّعقيد والاستكراه ونحوها، وحكم عليه بالسّخف.

وفي سياقه قال قوم أنّ الإعجاز حالٌّ في خلوّه من التّناقض واشتماله على المعاني الدّقيقة.

ثمّ ذكر مذاهب أخرى سردها سردا.

رأي الرّافعي في الإعجاز القرآني:

الذي توقّعته من الرّافعيّ أن يُجْمِع العبارة في تحديد معنى الإعجاز، لكنّه أرسل الكلام وهو يبدي تصوّره حول الإعجاز، وما سأقوم به هو محاولة اختصار عبارته وتهذيبها تقديما وتأخيرا مع الحفاظ على لفظه ما أمكن، حتى نحصل على ما يشبه المحدّد لمعنى الإعجاز المتحدى به في القرآن، مع التّنبيه إلى أنّه يرى أنّ القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من إطلاق لفظ الإعجاز الذي تدعمه سياقات كلّ الآيات دون استثناء، فلا يصحّ أن يُحَدّ أو يُقْصَرَ مع افتقار الدّليل على ذلك.
يرى أنه: **أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانيّة مبلغا؛ وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهيّة، يشاركها في إعجاز الصّنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأنّ له مادة من الألفاظ والمعاني كأنّها مركّبة من الموادّ كلّها، فهو معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنسانيّ؛ ومعجز كذلك في حقائقه..** (الرّافعي،2005،صفحة109)..

3-3 الفرع الثّالث: أوجه الإعجاز:

فهم العلماء من تحدّي القرآن للبشر أنّه معجز، وليس في قدرتهم أبدا أن يأتوا بمثله ولا أن يقاربوه، ثمّ تساءلوا عن نوع الإعجاز الكامن فيه، وحصل بينهم نقاش ومحاورة، ثمّ اتفقوا على أمرين:

الأوّل: أنّ إعجازه البيانيّ ظاهر لا مرية فيه لمن تذوّق البلاغة وأوجهها، وعرف البيان ومسالكه، لأنّه في أعلى درجات البيان لفظا ومعنى وتنوّعا، وبينه وبين بلاغة أفصح البشر سماوات.

الثاني: أنّ أوجه الإعجاز متعدّدة لا شكّ في ذلك، علمها الإنسان في يومه أو في غده أو لم يعلمها، دلّ على التّعدّد قوّة التّركيب وقوّة المعنى.

وكان هذا رأي الرّافعيّ فيما يبدو، فقد أخبر في كتابه أنّ للقرآن جوانب إعجاز كثيرة، قال(الرّافعي،2005،صفحة108): "وقد وقّفناك منه على وجوه عدّة".

وحين فصّل قال(الرّافعي،2005،صفحة25): "إنّ هذا القرآن ما زال يهدي للتي هي أقوم، وإنّ النّول فيه ما برح كثير المذاهب متعدّد الجهات متّصل الحدود يفضي بعضها إلى بعض، إذ هو كتاب السّماء إلى الأرض مُستقرّا ومُستودعًا، وقد جاء بالإعجاز الأبديّ الذي يشهد على الدّهر ويشهد الدّهر عليه، فما من جهة من الكلام وفنونه إلاّ وأنت واجد إليها متوَجّها فيه، وما من عصر إلاّ وهو مقلّب صفحة منه".

وهذا ما صرّح به من أنواع في كتابه 'إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة':

النّوع الأوّل: الإعجاز البلاغيّ:

اعتبره أصل فكرة الإعجاز، وأظهرَ أوجهه، وجعله غاية كتابه باعتبار تخصّصه، ووصفه بكونه: إعجاز القرآن في نفسه من حيث هو كلام عربيّ، وجعل مرجع بلاغته إلى: الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حيّ من الألفاظ، في دقّة التّأليف وجمال التّصوير وشدّة الملاءمة (الرّافعي،2005،صفحة109).

قال(الرّافعي،2005،صفحة21): "وقصرنا من ذلك على ما كان مرجعُ أمره إلى اللّغة في وضعها ونسقها والغاية منها.. وهذا هو في الحقيقة وجه الإعجاز الغريب الذي استبدّ بالرّوح اللّغوية في أولئك العرب الفصحاء".

وعنده أنّ هذا الجانب من الإعجاز مسلّم به عند الفصحاء العقلاء المنصفين، فلا يوجد رجلٌ ذو علم بأساليب العربيّة وأسرار صناعة الكلام العربيّ يرتاب في أنّ القرآن معجزٌ في بلاغته ونظمه واتّساقه(الرّافعي،2005،صفحة21).

النّوع الثّاني: الإعجازات العامّة:

ذكر أنواعا سماها (الأنواع العامة) واعتبر سمتها أنّها لا تخالف الفطرة الإنسانيّة، وفي تفصيلها ذكر:

الجانب التّاريخيّ (الرّافعي،2005،صفحة109) و(الزّين،2004،صفحة17): ثلث القرآن حوادث وقصص تاريخي، بدءا بقصص الأنبياء ثم بدْءِ الخلق وقصص السّابقين وانتهاء إلى الحوادث التي جرت بين النّبي صلّى الله عليه وسلّم وبين معاصريه من قومه أو من أهل الكتاب أو من غيرهم، فهي كلّها إذا نظرنا إليها من ناحية كمّ المعلومات مع انتفاء الخطأ وعدم التّردد في عرض التفاصيل أو التّعارض بينها في المواضع التي تكررت فيها، فإنّ الدّارس قد يتحصل على أفكار جيّدة حول الإعجاز، وقد فعل بعض الباحثين ذلك.

يضمّ إلى ما سبق: النّظر إلى تاريخ نزول القرآن وحفظه وتدوينه، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:09]..، فإنّ ذلك لم يحصل مع غير القرآن من الكتب السّماويّة.

جانب صدق الحقائق (شلبي،1985،صفحة81): وهو مثل الجانب التّاريخيّ، لكنّه أعمّ، إذ يشمل أيّ حقيقة مهما كان نوعها، وعلى رأسها الحقائق العلميّة والمنهجيّة.

جانب أثره الإنساني: وهو مضمارُ بحْثِنا، بحيث سنجعل كلام الرافعي المفرّق في كتابه مدوّنة تدور حوله حيثيات هذا البحث.

نعم؛ هو لم يجعل في منهجية كتابه ولا أهدافه أن يتطرّق للجانب الإنسانيّ، لكنّ المطالع يلحظ أنه ألجئ إليه، فلم يكتف -كما قال في مقدمة الكتاب – بالإشارة إليه، وإنّما صار يعود إليه كلّ مرة، وذلك جعلني أسجل ملاحظة هي: أنّ الجانب الإنسانيّ أوسع الجوانب وأشملها، وله تعلّق مباشر مع كلّ أنواع الإعجاز، حتّى أنّ الدّارس لا يمكنه تجاوزه مهما كان النّوع الذي يقصد إليه.

2-4 الفرع الرّابع: مسالكه في إثبات إعجاز التأثير:

ذكر مسالكه في استخراج أوجه الإعجاز مجملة في قوله (الرّافعي،2005،صفحة109):

"أمّا الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حقّقناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتّأمّل وتصفّح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الرّويّة، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطّراد أسلوبه؛ ثمّ ما تعاطيناه لذلك من التّنظير والمقابلة، واكتناه الرّوح التّاريخيّة في أوضاع الإنسان وآثاره وما نتج لنا من تتبّع كلام البلغاء في الأغراض التي يُقصَد إليها، والجهات التي يُعمل عليها، وفي ردّ وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللّغويّ..".

لم يكن الرّافعيّ وهو يعيش في عصر البحث العلميّ والتّفكير الموضوعيّ أن يَرِدَ موضوعا خطيرا دون منهجيّة واضحة، ولا أدوات استنباط، ولا وسائل تحليل.

إنّ النّصّ السّابق يعتبر تصريحا بوسائله ومسالكه وأدواته التي يمكن تحديدها في:

أ. التّأمّل وإطالة الفكر وتصفّح الآراء: ربّما قصد تأمّل القرآن أوّلا، فتأمّل حركة المجتمعات تاريخا وواقعا ثانيا، ثمّ تأمّل أقوال العلماء والمفسّرين ثالثا.

ب. الاستنباط من القرآن: إذ إنّ في القرآن سننا وقواعد وقوانين كونيّة تبيّن مكنونات النّفس الإنسانيّة، ومقامات البشر من نبوّة وملك ووزارة وأولي علم وعامّة.. وتصف أنواع المجتمعات وأسباب رقيّها وعوامل انحطاطها، وأسس الحضارة والعمران..

ت. المقابلة: وتكون بين كلام الله وكلام البشر، وبين تأثير القرآن وتأثير الخطابات البشريّة نثرا وشعرا، وبين تحمّل الأمم والأجيال للخطابات..

يبدو أنّ مسالكه كلّها تعود إلى 'المقارنة الاجتماعيّة'، فهو يأتي إلى وصف التأثير القرآنيّ في مجال من المجالات، ثمّ يستدعي الذاكرة، ويفسح للقارئ – ولو كان خصما – الحقَّ في المشاركة حول استحضار نموذج استطاع أن يفعل فعل القرآن بجيل الصّحابة وكثير من الأجيال بعدهم، ليفتح المقارنة التي ستحكم يقينا بغلبة القرآن، والتّأمل الأعمق حتما سيقود إلى إثبات صفة 'غير الإنسانيّة' له، ثم صفة 'الدرجة العليا' من التّأثير وهي درجة 'الإعجاز' المتحدّى بها.

ومسلكٌ آخر ظاهر، وهو 'التّحليل النّفسيّ المقارن' من خلال تحليل نفسيّة المسلم الفاعل، وعادة ما يكون باستعمال مصطلحات التّعميم، كالعلماء أو الفاتحين أو الصّحابة أو الجيل.. ثمّ يقوم بتساؤل استنكاري – الغرض منه النّفي – حول إمكانيّة أن يبلغ خطاب بشريّ من نفس مستمع ما بلغ القرآن من نفوس المسلمين تأثّرا وتأثيرا؟!.

وأمثلة كلّ هذا ستأتي في المطلب الثّاني من هذا البحث.

المطلب الثّاني: مجالات التّأثّر الإنسانيّ الدّالّة على وجه من أوجه الإعجاز

تمهيد: يسوغ منهجيّا أن نبدأ بالنّتيجة الكلّيّة التي توصّلتُ إليها من خلال تحليل نصوص الرّافعيّ المتفرّقة، وهي: هناك رابط وثيق بين الإعجاز البلاغيّ والإعجاز بأثره الإنسانيّ، وكأنّ الأوّل وسيلة للثّاني الذي يعتبر غاية ومقصدا قرآنيّا.

إذ إنّ الله تعالى ـ وهو أعلم بخبايا النّفس الإنسانيّة ـ قصد إلى البلاغة الخطابيّة للتّوعية والشّحذ، فتلقّاها جيل متشبّع لغويّا يفهم أسرار العربيّة ويتكلّمها سليقة، ويضع أشباهها ملكة وسجيّة، فكان الأثر الذي لم يكن لأيّ حضارة أن تبلغه قدرا وزمنا.

وهنا عبارات مررتُ عليها للرّافعيّ في التّأثير القرآنيّ على الإنسان لا يمكن تجاوزها، فالقرآن في رأيه جعل الأمم أحجارا في بناء الحضارة، وجعل المسلمين إذا اجتمعوا وائتلفوا انضمّوا كالبنيان المرصوص، وإذا افترقوا سطعوا في تيجان الممالك كالفصوص، ولا يزالون منذ نزل عليهم القرآن من التّاريخ أصوله وفصوله.

واعتبر أنّ اللّغة العربيّة التي جمعهم عليها القرآن كانت لهم جنسيّة جمعتهم في وحدة سياسيّة كانت كالقلب النّابض للعالم عبر العصور.

وذكر مخطّطا عامّا استنتجه، وهو أنّ القرآن بدأ بالتّأليف بين مذاهب الفطرة اللّغوية في الألسنة فجمعهم على لسان قريش خاصّة لعلمه أنّهم لا يقبلون غيره واسطة، ثمّ ألّف بين القلوب على مذهب واحد وهو الإسلام أو شرائع القرآن، ثمّ جعلهم عرفاء مهمّتهم التّأليف بين الأمم ومذاهبها، كلّ ذلك على طريقة حكيمة لا تأتي علوم التّربية بأبدع منها(الرّافعي،2005،صفحة63).

يمكننا بعد هذا التقديم المفصّل الاطّلاع على جملة أفكار تفصيليّة وجدتها في ثنايا كتاب الرّافعيّ دلّل بها على أهمّيّة النّظر الجادّ في جانب التّأثير، وإيجاد آليّة لحسابه وتحليله ومقارنته مع غيره:

1-3 جعل الله لغة القرآن أساس اجتماع العرب:

دعا الرّافعيّ في موضع من كتابه إلى تأمّل قول الله تعالى في وصف القرآن بأنّه ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزّمر:28]، واعتبر أنّها ترجح بالكلام الإنسانيّ كلّه، ثمّ دعا إلى التّأمّل في حال العرب لو استمرّوا على التّنافر والعصبيّة القبليّة التي بينهم، ألم يكن ذلك زعيما بإتلاف اللّغة العربيّة؟.

والحكم الذي استخلصه أنّ القرآن حافظ على العربية وجمع العرب عليها، وحفظ أصولها وتراكيبها، وجعلها مقوّما من مقوّمات وجودهم واستمرارهم وقوّتهم، فكان من تأثير ذلك أن اجتمعت قلوبهم بعد افتراق، وتآلفت بعد شقاق(الرّافعي،2005،صفحة58).

إنّ اجتماع العرب قضيّة أساسيّة إذا أردنا للإسلام أن يفتح أقطار الأرض، ويحمل رسالته العالميّة إلى بني آدم في اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم، وهذا كان وعدا قطعه القرآن على أتباعه، وأكّده النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في أحاديث كثيرة كان يشحذ بها همم أصحابه في بداية الدّعوة، فكان لا بدّ إذن من إيجاد آليّة الاجتماع، فكانت اللّغة أفضل آلية.

ثمّ كان التّأثير المحكم المتمثّل في صوغ الرّسالة في قالب لغة معجزة لا يستطيعها فصحاء العرب ونقباؤهم، والنّتيجة الماثلة أمامنا أنّ اجتماع العرب تمّ، وتمّ معه انسجامهم مع غيرهم من الجنسيات في أوجز فترة، وعلى نطاق واسع لا يمكن أن يحصل لأيّ فعل بشريّ مهما بلغ من التّأثير الأسلوبيّ والبلاغيّ.

وهذه واحدة من جوانب التّأثير الحضاريّ كافية لإثبات إلهيّة القرآن، فكيف إذا أضيف إليها غيرها.

2-3 **التّحضير اللّغوي الذي سبق القرآن كان لأجل جعل التّأثير أبعد مرمى** (مالك بن نبي،2000،صفحة109):

وهذه تابعة للأولى، وما فصلتها عنها إلاّ لتظهر وتتّضح، إذ اعتبر أنّ الرّابطة اللّغويّة صارت كأنّها 'أعصاب في أذهانهم'، وأنّها مركز تصنيع الإرادة التي تحضّهم على أخلاقهم وطباعهم، وتصرّفهم في وجوه الحياة فاعلين مؤثّرين.

(الرّافعي،2005،صفحة111) "ولولا أنّ القرآن الكريم قد ملك سرّ هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده، ولا حيلة لهم معه، ممّا يشبه على التّمام أساليب الاستهواء في علم النّفس، فاستبدّ بإرادتهم، وغلب على طباعهم، وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلافه، حتى انعقدت قلوبهم عليه".

(الرّافعي،2005،صفحة110) و"كلّ من يبحث في تاريخ العرب وآدابهم؛ ينفذ إلى.. أنه يرى كلّ ما سبق على القرآن – من أمر الكلام العربيّ وتاريخه – إنّما كان توطيدا له، وتهيئة لظهوره، وتناهيًا إليه، ودُربة لإصلاحهم به، وليس في الأرض أمّة كانت تربيتها لغويّة غيرَ أهل هذه الجزيرة".

هنا أشار الرّافعيّ إلى ثلاثة مستويات متباينة:

المستوى الأوّل: التّحضير الذي سبق نزول القرآن: قصد به تلك الفصاحة التي أحبّوها وأتقنوها وامتازوا بها، حتّى وضعوا لها أسواقا يتبارزون فيها بأشعارهم وخطبهم، ثمّ يتحاكمون لمن يحكم بينهم ببرهان، فيقول هذا أشعر وهذا أخطب، فلمّا أن جاء القرآن التفتوا إليه التفات عارف متخصّص، ولم يحتج إلى تنبيههم سوى برفع مستوى الخطاب إلى درجة لم يعهدوها.

المستوى الثّاني: جاءهم بفصاحة وبلاغة يشبهان أساليب 'الاستهواء في علم النّفس': قصد أنّ القرآن حمل في جمله وتراكيبه من الكثافة المعرفيّة والانسجام اللّفظي والصّوتي ما لا يوجد مثله في كلام بشر، إذ لا يدع حاسّةَ إدراك إلاّ وأحياها ثمّ استثارها ثمّ شغلها عن كلّ مهمّ.

المستوى الثّالث: التّأثّر الملجئ الذي لا قبل لهم به: ثمّ يأتي كنتيجة لكلّ ما سبق أن يجد الفرد المخاطب نفسه ملجأ للاستجابة لداعي القرآن، فيستجيب ثمّ يخبت، ثم لا يلبث أن يُطبع بأخلاق القرآن، ويملأ بقيم العدل والإحسان، ويربّى على أركان الإسلام والإيمان، ويشحذ بهمّة الفاتحين، ثمّ يدعى للتّبشير بكلّ ذلك محبّا للنّاس ما أحب واختار لنفسه.

3-3 نزوله مفرّقا كان أظهر لوجه الإعجاز وأسهل للتثاقف:

اعتبر أنّ نزول القرآن مفرّقا حسب الحوادث من حِكَم إعجازه، وعدّ في حكمة الإعجاز المتعلّقة بجانب التّأثير الإنسانيّ:

- ✓ أنّ القليل أثبت في القلوب والألسنة، وأسهل للتّناقل والتّثاقف.
- ✓ وأنّ الكلام ذا الموضوع الواحد الموجّه إلى حادثة معيّنة يكون أشدّ وقعا وأبلغ حجّة.
- ✓ أنّ فيه إمكانيّة تحدّيهم بأقصر سورة منه، إذ لو أنزل جملة واحدة لكان لهم في ذلك وجه من العذر ينفّس عليهم أمر الإعجاز(الرّافعي،2005،صفحة26).
- ✓ (الرّافعي،2005،صفحة26) "وحكمة أخرى معها: وهي استدراج العرب وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النوازل وكفاءَ الحادثات، ليكون تحوّلهم أشبه بالسّنّة الطّبيعيّة".

3-4 سياسة القرآن استمراريّة حضور المسلم:

لا أجد إلاّ أن أبدأ بكلامه وأبقيه كما هو لأنّي أجد فيه قوّة لا يمكن الاستعاضة عنها، قال(الرّافعي،2005،صفحة60): "تلك سياسة هذا القرآن: جمع العرب لمذهب الأقدار وتصاريف التّاريخ، رأى ألسنتهم تقود أرواحهم، فقادهم من ألسنتهم وبذلك نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي في كلّ أمّة، فتجعل الأمّة كأنّما تحمل من هذا العقل مفتاحَ الباب الذي تلج منه إلى مستقبلها؛ فإنّ كلّ أمة تستفيد عقلها الحاضر من ماضيها، لتفيد مستقبلها من هذا العقل بعينه..

فلمّا استقاموا له أقامهم على طريق التّاريخ.. فجعلوا يبنون عند كلّ مرحلة على أنقاض دولة دولة، ويرفعون على أطلال كلّ مذلة صولة، ويخيطون جوانب العالم الممزّق".

وهذا الاستمرار مع الدّهر مستمدّ من تأثير القرآن أبدا، فالقرآن رسالة خالدة، فلماذا لا يكون حضور المسلم خالدا؟ بلى.. إنّ المسلم خالد ما استقام على هدي القرآن، لا تزول له دولة إلاّ وجد في القرآن متمسّكا ومنطلقا، ولا مرضت له أمّة إلاّ وجد في القرآن لها علاجا وبلسما.

وحتّى العالم الكبير بأعراقه ودياناته السّماويّة والأرضيّة، يوم يوشك على الانهيار متأثّرا بالفلسفات البشريّة المتطرّفة والمستبدّة؛ لا يجد من يخيط تماسكه إلاّ الإسلام لأنّه ثابت مقاوم لا يمكن أن يرضخ لأيّ انحراف أو استبداد مهما بلغت قوّته ومهما دانت له الأديان الأخرى.

3-5 القرآن أثرى الأمّة ثقافيا وحضاريّا:

وفي فصل تأثير القرآن على اللّغة اعتبر أنّ القرآن أتى بوجوه لغويّة لم تعرفها العرب، ورغم أنّها لغة عصرهم عرفوا معانيها وتكلّموا بمفرداتها إلاّ أنّه لبلاغة تراكيبها وقوّة أساليبها صارت نهج الألسنة والأقلام، هذا من جهة اللغة طبعا، أمّا من جهة التّأثير الإنسانيّ فإنّ تالي القرآن الفاهم لمقاصده ومراميه يُبهت حتى لا يعلم أيسمع بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود(الرّافعي،2005،صفحة54).

فهي بذلك أسّست لمنهج ثقافيّ [شعريّ ونثريّ] جديد، وأزيد أمرا فهمته من سياقاته الكثيرة، أنّ القرآن أوجد مادّة فلسفيّة لجملة من المواضيع المتعلّقة باللاّهوت والإنسان والاجتماع، فكانت منطلقا وأساسا وحُكْما على جملة قضايا حرّكت الفكر، فحرّك الفكرُ السّياسة والمجتمع والاقتصاد والثّقافة (درّاز،2022،صفحة85).. وتحكّم في اتجاهاتها حتّى أثّرت الأمّة ثقافيا وحضاريّا.

وفي التّفصيل نقول: ألم تكن الأمّة العربيّة أمّية لا تعرف الكتابة ولا القراءة فشاعت الكتابة والقراءة بعد انتشار الإسلام، بل ولدت حركة التّأليف والتّرجمة، وبدأت العلوم تتولّد وتتفرّع، تلد الفكرة الفكرة والموضوع الموضوع، حتّى شاركت الأمّة الإسلاميّة الأمم الرّاقية في صنع الحضارة وفاقتها، وباهت بإنتاجها الأزمان والأمصار، فهذا أدب وهذا شعر، وهذا نحو وهذا صرف وهذا عروض، وهذا تصنيف للعلوم، وهذا كلام وهذه فلسفة، وهذا طبّ وهذه صيدلة.. وتعال إلى العلوم الشّرعيّة وأجناسها، من أصول الدّين، إلى الأحكام الشّرعيّة، إلى السّير والتّاريخ والتّراجم، إلى الزّهد والرّقائق والمواعظ والأخلاق..

وأمّا السّياسة ونظام الحكم، ونظام القضاء والشّرط، وما صاغه علماء الإسلام تنظيرا، وما صاغه حكّام الإسلام نهجا، سواء في الحرب أو في السّلم؛ فإنّه ممّا تقوم له الأذهان إذعانا واعترافا.

وأمّا العمارة فهي عمارة مبتكرة في هندستها وفي فلسفتها وفي أذواقها، وها هي البنايات قائمة شاهدة على براعة الصّانع وجماليّة ذوقه..

وأمّا ثراء المدارس والمذاهب والمناهج فلا يخفى على مثقّف، كلّ ذلك بسبب القرآن وما يفعله بحامله.

3-7 خدمة القرآن اقتضى تحرير العلوم وتدوينها:

كان القرآن أصل الحضارة الإسلاميّة وهذا بيّن لا يحتاج دليلا، وبتوجيه منه صارت وارثة علوم حضارات سابقة لها، ثمّ كانت واسطة بينها وبين حضارات لاحقة، ويمكن التّنبيه إلى أنّ هذا لم يكن خاصّا بالإسلام، وإنّما كلّ دين يُعتبر طورا من أطوار نموّ العقل الإنسانيّ.

ويستدلّ الرّافعيّ تاريخيّا، فيعتبر بـ [كون العلوم الإسلاميّة ومنهج البحث فيها] بدأ بعلوم القرآن حفظا وتدوينا وتحريرا وتفسيرا، ثمّ تفرّعت العلوم شيئا فشيئا حتى صارت أنواعا كثيرة استفادت منها الإنسانيّة جمعاء فيما بعد، كما لا يحسن بنا ونحن نبحث عن معاني الإعجاز الكامنة في القرآن أن ننسى أنّه نزل على نبيّ أمّيّ يعيش في أمّة أمّيّة.

وجعل من أدلّة إعجازه عدم تعارضه مع العلم، وكانت عبارته تومئ إلى أنّ التفسيرات الخاطئة للقرآن لا تلبث أن يصحّحها العلم بما يتوافق مع ظاهر القرآن الموافي للأصول العامة الواضحة، فكأنّ غاية العلم الحديث استظهار حقائق القرآن الطّبيعيّة!

ومن الأفكار المثيرة للاهتمام استنتاجه أنّ تدبّر الآيات الكونيّة في القرآن يوقفنا على إعجاز آخر؛ إذ يومئ إلى أنّ الزّمن متّجه إلى العلم القائم على تقرير الحقائق بالأدلّة العقليّة والمنهج المحكم، وأنّ الإنسانيّة ذاهبة إلى التّمكين للعقل تمكينا يقودها إلى حضارة بلون جديد.(الرّافعي،2005،صفحة59).

3-8 آداب القرآن شرائع الخلق الإنسانيّ:

تناول فكرة الآداب الإسلاميّة مشيرا إلى فلسفة كبيرة جعلت الأخلاق حاكمة على المسلم حكما حقيقيّا في السّر والعلن، لا حكما صوريّا مبنيّا على السّمعة والرّياء، ويمكن تقسيم كلامه إلى فكرتين:

الفكرة الأولى: أنّ آداب القرآن ترمي في جملتها إلى تأسيس الخُلق الإنسانيّ المحض الذي لا يضعفُ معه الضّعيفُ دون ما يجبُ له، ولا يقوى معه القويّ فوق ما يجب له.

الفكرة الثّانيّة: القرآن جعل الأدب عقيدة لا فكرا، إذ جعل باعثه الرّوح، وجعل وازع كلّ امرئ في داخله، فيكون الفرد هو الحاكم والمحكوم، بحيث يراقب الله في كلّ تصرّفاته.

وفي مقارنة جيّدة بين الآداب الفلسفيّة أو العرفيّة والآداب القرآنيّة خلص إلى أنّ الآداب العرفيّة والفلسفيّة إن أقنعت العقل لم تبلغ القلب، وإن أغنت في قليل لم تغن في كثير، أي أنّ تأثيرها محدود، وهي عند أربابها لا تتجاوز أن تكون رياضة ودربة، وأخرى أنّه لا يمكن أن نجعل كلّ مجتمع يقوم بنفسه على نفسه، ومادامت من اختراع الإنسان فلا بدّ أن تنقص منها التّجربة ويشوبها الاجتماع ويفسد عليها الظّنّ والتّأويل(الرّافعي،2005،صفحة70).

وعكس ذلك تماما مع الآداب القرآنيّة التي تختّص بكونها ربّانيّة المصدر، عالميّة التّأثير، راعت مقاصد البشر واستطاعتهم، فظهر تأثيرها في هيئة تديّن، وبانت فائدتها في نماء المجتمع.

3-9 فكرة 'القيافة المعنويّة':

من الأفكار المبتكرة التي حواها الكتاب فكرة 'القيافة المعنويّة'، أطلقها في سياق حديثه عن تأثير القرآن على اللّغة، وإنّي أرى أنّ هذه الفكرة بمحمولها الثريّ يمكن أن ترشّح لتكون نظريّة كاملة، ولو تفرّغ لها بعض الباحثين فشرحوها بالأدلّة والأمثلة لكان لذلك الأثر البالغ.

ذهب في استدلاله على إعجاز القرآن بمقابلة القيافة التي هي: أن يَعرف بفطنة أنّ هذا ابن هذا أو أخوه (الزّمخشريّ،2005،ج1ص174).

استعار هذا المعنى، واعتبر أنّ أهل 'القيافة اللّغويّة' يستطيعون تمييز اللّغة بتناسبها مع عصرها، فيحكمون أنّ هذا الخطاب متناسب مع العصر الفلانيّ، لأنّ اللّغة ابنة العصر فلا يمكن أن تتجاوزه إلاّ بقدر معقول، ثم سجّل ملاحظته أنّ هذا غير حاصل مع لغة القرآن أسلوبا وموضوعا ومحمولا مع وصف العصر الذي نزل فيه، وأنّ التّمايز بعيد بعد من لا تلاقي بينهما.

ثمّ خلص إلى نتيجة حتميّة وهي: أنّ هذه اللغة ليست ابنة هذا العصر ولا خرجت من رحمه، إذن هي ابنة أي عصر؟ الحكم العادل يقول أنّها ابنة كلّ العصور المتطوّرة البالغة في قيم الحضارة منتهاها، وهذا وعي يلزم معتنقه بالجزم أنّ القرآن كلام الله المعجز والمصلح للنّفوس والمجتمعات.(الرّافعي،2005،صفحة55).

إنّ إدراك هذه الحقيقة تسبّب في نفس المسلم عزّة بالإسلام، واعتقادا جازما بأنّه إلهيّ المصدر عالميّ الرّسالة، حمّالُ حلول وإجابات لكلّ مشكلة أو عويصة أو عقبة، صالح مصلح متى استدعي، فيزيد إقباله على استخراج كنوز ونفائس القرآن، معتقدًا أنّ لكلّ زمان عباقرته الذين يستطيعون توظيف القرآن في بناء الإنسان والمجتمع والدّولة، إذ العلّة متى كانت في أمّة مسلمة لا بدّ أن يكون سببها جهلهم بكيفيّة استنطاق معاني القرآن لا في القرآن نفسه.

3-10 سرعة خروج العربيّ من تاريخه:

إنّ من أعجب الاستدلالات التي استدلّ بها هي: كيف نفسّر كون الإنسان الذي تربّى على الأنفة وتقديس المتوارث، ذلك العربيّ المعتزّ بأرضه وتاريخه، لا يتأنّى بعد سماعه لخطاب القرآن حتى يجهز للخروج من تاريخه؟، ثمّ أجاب بأنّ ذلك لم يكن ليحصل لولا فهمه الموفّق بأنّ القرآن سيصنع لهم وبهم تاريخا جديدا لا يختصّ بأرضهم ولا بعصرهم، وإنّما هو تاريخ تشترك فيه الحضارات ويبقى بقاء الأرض (الرّافعي،2005،صفحة62).

وفي سياق التّأثير الإنسانيّ يمكن القول أنّ هذا الخروج مستمرّ متى عُرض الإسلام عرضا صحيحا، وهذه جماهير لا تزال تدخل في الإسلام من جنسيات كثيرة بسبب قراءة ترجمة القرآن، فكيف لو بذل المسلمون جهدا كافيا في نشر اللّغة العربيّة على

أوسع نطاق، وكانت الغاية أن تتلى بتعريف واف بالقرآن وتفسيره، ألا يمكن أن تعاد الكرّة فنرى دخول النّاس وفودا في الإسلام، ثمّ ظهور حركة تبشيريّة كبرى بالإسلام كالتي قادها جيل الصّحابة والتّابعين؟

3-11 سبب نقص التأثير في بعض العصور:

إتماما للجهد العلميّ المتقن الذي بدأه؛ لم يفوّت مناقشة فكرة – أو دعنا نقول شبهة – تبدو وجيهة بادئ الرأي، وهي تساؤل أحدهم: لماذا نرى نقص التّأثير القرآنيّ في نفوس المسلمين في كثير من العصور سيما المتأخرة منها؟ ولماذا لا نراهم اليوم قادة ما داموا يملكون هذا الدّعم المعنويّ والماديّ المستمدّ من القرآن؟

لا يمكن أن نغفل عن كون هذه الفكرة لو استبعدها الرّافعيّ رحمه الله لأتى من يطرحها ويزعم أنّها تأتي بالهدم على أغلب أفكاره سالفة الذّكر، خاصّة منها: فكرة الإثراء الحضاري والقوّة المعنويّة والاستهواء النّفسيّ وسرعة الخروج عن المعتقد بعد سماع القرآن.. وغيرها.

لأجل ذلك أوردها الرّافعيّ، وأراه اعتقد أنّها ضعيفة أمام حشد الأدلّة التي سبق، لكنّه رغم ذلك أجاب عنها بكون عدم التّأثّر في بعض العصور عائد إلى جملة علل، ثمّ في سياق ما أراد التّأسيس له من أوّل الكتاب وهو الجنسية اللغويّة؛ فإنّه اعتبر أنّ علّة العلل راجعة إلى تفريط المسلمين في لغة القرآن، فأصبحوا لا يفهمون كلمه ولا يدركون حِكَمه، ولا يتّعظون بمواعظه، أي: ضَعُف التّأثّر فضعف التّأثير.

وكأنّه اعتبر أنّ الجنوح إلى جواب سهل ترغب فيه النّفوس المتشبّعة بالهوى، ولا تعرف من العدل والإنصاف والموضوعيّة إلاّ اسمها؛ يُعدّ نوعا من الكسل المعرفيّ، ولا يعدّ بحال إجابة صحيحة بله نهائيّة للموضوع.

إذ كيف لعقل علميّ متشبّع بالأعراف الأكاديميّة أن يقبل بحكم مفاده: أنّ الإسلام غير مؤثّر، ودليله أنّه لم يؤثّر في جيل.

وفي المقابل لا يقبل عقله بحكم مفاده أنّ الإسلام مؤثّر، والدّليل أنّه أثّر في أجيال كثيرة، ومازال تأثيره رغم نقص الاستجابة وندرتها.

أليس من الإنصاف أن نختار ما اختاره الرّافعيّ من أنّ المشكل في المتلقّي لا في الملقي، وفي المبلَّغ لا في المبلّغ.

هذا مع عدم استحضار الموانع، فإذا استحضرنا الموانع كالخروج الحديث من آثار الاستعمار الذي جعل من سياساته إيجاد حاجز بين المسلمين وبين الانتفاع بالقرآن، فإنّنا حينها نجزم بقوّة التّأثير بل بإعجازه.

خاتمة:

خلصت بعد تجميع كلامه من مواضع مختلفة من كتابه، ثمّ التّأليف بينه وتحليله إلى جملة نتائج هي:

✓ عدَّد الأستاذ الرّافعيّ جملة من جوانب الإعجاز القرآنيّ، ومن بينها: أثره الإنسانيّ، الذي سمّاه مرّة: 'المعجزة الاجتماعيّة'.

✓ انطلق في تأصيله من فكرة حساب التّغييرات في النُّظم، والتي حصلت بعد نزول القرآن، وحاول دراسة جوانب التّأثّر بالقرآن خاصّة، واستنتج أنّ الحكم في أيّ دراسة جادّة وعادلة سيكون حتما لصالح نفي القدرة البشرية أن تأتي بمثله.

✓ ذكر أنّ التّأثير ذو أبعاد نفسيّة وسياسيّة واجتماعيّة.. واعتبر أنّ أهمّها البعد النّفسيّ المتأثّر بلغة القرآن العالية، كما استنتج أنّ الإعجاز بالتّأثير الإنسانيّ نتيجة من نتائجه.

✓ ساق جملة من النّقاط والأمثلة حول فكرة إعجاز القرآن بأثره الإنسانيّ تكون وصفا توضيحيّا لسالكه، أهمّها: أنّ التّحضير اللّغويّ سبق نزول القرآن لأجل جعل التّأثير أبعد مرمى، سياسة القرآن استمرارية حضور المسلم بتأثيره، معجزة القرآن أثرت الأمة لغويّا وثقافيّا وحضاريّا، خدمة القرآن اقتضت تحرير العلوم وتدوينها..

✓ كما طرح فكرة قويّة سمّاها: 'القيافة المعنويّة' في مقابلة 'القيافة النّظريّة'، وفحواها أنّ العالم المتخصّص يمكنه من خلال دراسة لغة الخطاب تحديد العصر الذي كتب فيه، فإذا رأى التّباين الحاصل بين القرآن وعصره حكم مُلْجَأً بإلهية مصدره ومعجزة بيانه.

توصية:

وتوصية لا أفوّتها هي أن يتصدّى أحد الباحثين لتسجيل هذا الجانب من جوانب الإعجاز ليسوغه في رسالة تخرّج، أرى أنّه سيكون لها وقع كوقع كتاب 'النّبأ العظيم' للدكتور محمد بن عبد الله دراز في زمنه، أو يخصّ فكرة 'القيافة المعنويّة' بالدّراسة والتّوسيع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1. ابن تيمية؛ تقي الدّين أحمد (ت:728هـ)، 'مجموع الفتاوي'، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف [1425هـ/2004م].
2. ابن تيمية؛ تقي الدّين أحمد (ت:728هـ)، 'النّبوّات'، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطّويان، ط:1، الرّياض، أضواء السّلف [1420هـ/2000م].
3. درّاز؛ محمّد بن عبد الله، 'النّبأ العظيم'، ط:6، مصر، عالم الآداب للترجمة والنشر[1444هـ/2022م].
4. الزركلي؛ خير الدّين، 'الأعلام'، ط:15، بيروت، دار العلم للملايين [2002م].
5. الزّمخشريّ؛ أبو القاسم جار الله (ت:538هـ)، 'الفائق في غريب الحديث'، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط:3، لبنان، دار المعرفة.

6. الزّين؛ محمود أحمد،'القرآن؛ إعجاز تشريعي متجدّد'، دار البحوث للدراسات الإسلاميّة –دبيّ، ط:1 [1425هـ/2004م].
7. مالك بن نبي (ت:1339هـ)، 'الظّاهرة القرآنيّة'، ط:4، دمشق، دار الفكر [1420هـ/2000م].
8. مساعد الطّيّار، 'الإعجاز العلميّ إلى أين؟'، ط:3، الرّياض، دار ابن الجوزي [1433هـ].
9. مصطفى صادق الرّافعيّ (ت:1356هـ)، 'إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة'، ط:08، بيروت، دار الكتاب العربيّ [1425هـ/2005م].
10. مصطفى صادق الرّافعيّ (ت:1356هـ)، 'تاريخ آداب العرب'، ط:4، بيروت، المكتبة العصريّة [1434هـ/2013م].
11. مصطفى صادق الرّافعيّ (ت:1356هـ)، 'وحي القلم'، ط:1، بيروت، دار الكتب العلميّة [1421هـ/2000م].
12. مصطفى مسلم، 'مباحث في إعجاز القرآن'، ط:3، دمشق، دار القلم [1426هـ/2005م].
13. هند شلبي، 'التّفسير العلمي بين النّظريّات والتّطبيق'، ط:1، تونس، مطبعة قرطاج [1406هـ/1985م].

Sources:

- The Holy Qur'an

1. Ibn Taymiya; Taqi al-din Ahmad (728AH), 'Majmua al-Fatawa', editing by: Abd-Alhman bin Muhammad bin Qasim, Medina, King Fahd Complex for the Printing of The Qur'an [1425AH-2004AD]
2. Ibn Taymiya; Taqi al-din Ahmad (728AH), 'Prophecies', edited by: Abd-ulaziz bin Saleh al-tawan, Adwa'a al-Salaf [1420AH-2000AD
3. Daraz; Muhamad bin Abdullah, 'The Geat News', 6th edition, Egypt, Alam Al-Adab for Translation and Publishing [1444AH-2022AD]
4. Al-Zirikli; Khair al-Din, 'Al-A'lam', 6th edition, Beirut, Dar Al-ilm lil-Malayin [2002AD]
5. Al-Zamakhshari; Abu al-Qasim Jar Allah (538AH), 'Al-Fa'iq fi Gharib al-HAdith', editing by: Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, 6rd Lebnon, Dar Al-Ma'rifa
6. Al-Zain; Mahmoud Ahmed, 'The Qur'an ; A renewed passport exemption', Dar Al-Kitab Al-Islamiyaa-DubAI, 1ST edition [1425AH-2004AD]
7. Malik bin Nabi; (1334AH), 'The Qur'anic Phenomenon'; 4th edition, Dar Al-Fikr-Damascus, [1420AH-2000AD]
8. Mussa'id AL-Tayiar, 'The Scientific Miracle; Where to?' 3RD edition, Dar Ibn al-Jawzi-Riad, [1433AH]
9. Mustafa Sadiq Al-Rafi'i (1356AH), 'The Miraculous of The Qur'an and The Prophet's Eloquence'; 8th edition, Dar Al-Kitab-beirot, [1425AH-2005AD]
10. Mustafa Sadiq Al-Rafi'i (1356AH), 'History of Arab Literature'; Almaktaba Al-misriya, [1434AH-2013AD]
11. Mustafa Sadiq Al-Rafi'i (1356AH), 'Revelation of the Pen'; Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah-beirut, [1421AH-2000AD]
12. Mustafa Muslim, 'Investigations in the Miracle of The Qur'an', 3rd edition, Dar Al-Qalam-Damascus, [1426AH-2005AD]
13. Hind Shalabi, 'Scientific Interpretation between Theories and Application', 1st edition, Carthage Press-Tunisia, [1406AH-1985AD]